

جمعية تراثنا بيروت

البرت هوسر في بيروت

في عام ١٩١٣

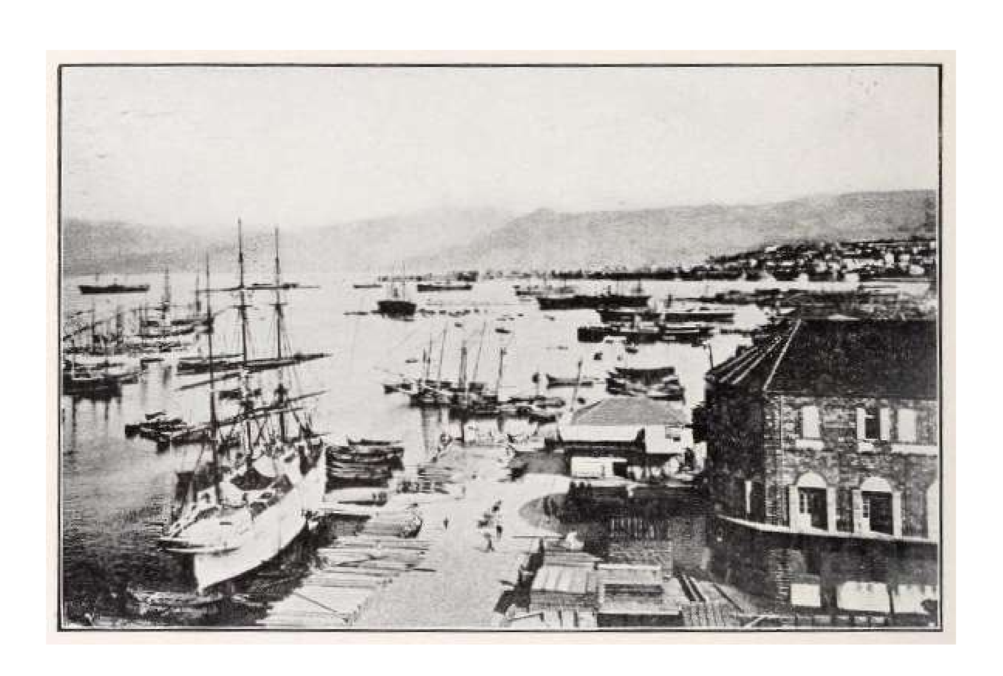
اعداد

نبيل شحاده

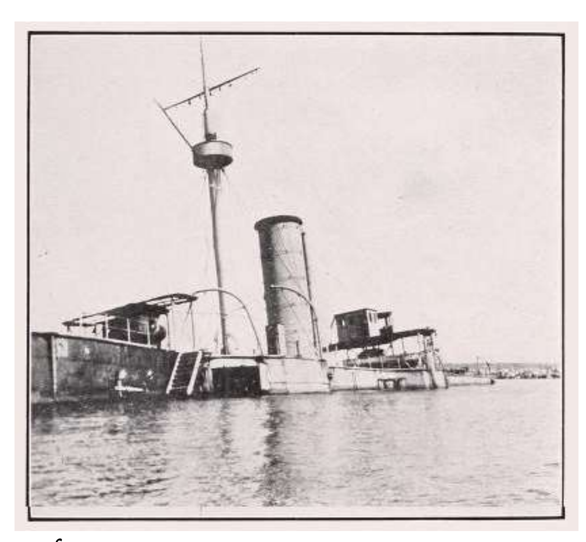
ألبرت هوسر (١) هو مؤرخ ومؤلف ومحاضر أميركي ولد في عام ١٨٨٦، وكان عضوًا في الجمعية الجغرافية الوطنية، وجمعية نيوجيرسي التاريخية، و ألف عددًا من الكتب عن التاريخ والسفر.
زار مصر وانتقل منها الى فلسطين، ثم جال في بلاد الشام في عام ١٩١٣، وكان له في هذه الرحلة محطة في بيروت التي وصل اليها بحرا من بور سعيد، وكتب عنها في كتابه "أرض الأنبياء"(٢) الذي صدر في عام ١٩١٦، وننقل لكم مترجما، بعضا مما كتبه عن وجوده في بيروت في ذلك الزمن.

يقول "هوسر" : في الساعة الثانية بعد الظهر، ابتهجنا بمشهد الساحل السوري، .... وما رأيناه من إيجابية في بيروت ، يليق بالمدينة أن تكون ميناء فلسطين الرئيسي، وقد يبدو المرفأ غير مهم، ولكن بالمقارنة مع المرافق البائسة في يافا وحيفا،نجد في بيروت الكثير مما يرضينا".

ويصف لنا مشهد بيروت من البحر الذي أبهر الكثيرين فيقول :" عند رؤيتها من البحر ، تقدّم بيروت مظهرًا جذابًا بلا ريب.المنازل الجديدة ذات اللون الكريمي والأسقف القرميدية الحمراء، والتي تتجمع بشكل كثيف على جانب التل، والمباني الواسعة للعديد من الكليات والمستشفيات والأبراج الموجودة هنا، تقنعنا تقريبًا بأننا في أحد موانئ الريفيرا".



ومع وصوله الى ميناء بيروت ، يقدم "هوسر" لنا صورة متناقضة فيقول :"ترسو في المرفأ عدة سفن تجارية، وتشعر في كامل هذا المكان بجوّ من الضيافة والازدهار الذي يبدل في وقت واحد بعض مفاهيمنا المسبقة والخاطئة عن الشرق"، وينقل لنا صورة سفينتين تركيتين غارقتين في داخل الميناء أغرقهما الإيطاليون في عام ١٩١٢ .



ثم يتابع :"وصلت الى شاطئ بيروت في وقت متأخر من بعد الظهر، و بعد الانتظار في صف طويل انتهيت من الجمارك، ثم خرجت لأجد مجموعة من العربات المتهالكة في الخارج تعمل في نقل المسافرين إلى فنادقهم، وكان مثيرا أكثر هو أداء الحمالين المزعجين الذين كانوا مستعدين ومن دون تردد لحمل أغراض ثقيلة وغير معقولة، بواسطة أحزمة أو أشرطة طويلة من القماش يشدونها الى أجسادهم ثم يربطونها الى جباههم كوسيلة إضافية لدعم ما يحملونه من أثقال.

ويصف لنا "هوسر" بشكل خيالي أزقة وممرات بيروت القديمة و الضيقة والمتعرجة والمتدرجة، والمرصوفة بالحصى ليلا، وهو يسير حمّاله، فيقول:"اتبعنا دليلنا المثقل بالأحمال، الذي انحنى كثيرا تحت ثقل حمولته، يعبر بنا صعودا الأسواق والممرات الضيقة التي تضيق أكثر، حيث المصابيح القليلة المشتعلة بشكل خافت بالكاد أنقذتنا عدة مرات من السقوط على أدراجها، فممرات بيروت ليست ممرات حقيقية ، ولكنها طرق متشابهة في كثير من النواحي لأجزاء من نابولي ومدن العالم القديم الأخرى".



ثم ينتقل بنا الى جلسة مسائية ساحرة على سطح أحد الفنادق الألمانية في بيروت التي اشتهرت بأن كل ما فيها نظيف الى درجة "التوهج واللمعان"، و لم يحدد لنا أيهما "الألماني" الذي تحوّل لاحقا الى "متروبول"، أو "غاسمان"، فيقول: "عند الجلوس مساء لتناول عشاء شهي على سطح فندق مجهز جيدًا ، وحيث تجد على الطاولات من يتحدث بالألمانية او بالفرنسية، فأنه من المستحيل أن ندرك أننا بالفعل في آسيا، وأن القمر اللامع يضيء بلطف فوق بيروت، وفي نفس اللحظة ، يسلّط أشعته على القدس وبغداد والقاهرة وأنطاكية وقبرص وطرسوس!".



ومتأثرا بما لاقاه من حفاوة و فخامة وشعر به من راحة في هذا الفندق يوجه شكره الى مالكيه فيقول :"وهنا، يجب شكر الألمان على الفنادق الفخمة في الشرق، فقد أكتشفت أن رأس المال الألماني والأدمغة الألمانية هي التي استفادت من كل فرصة ، وحسّنت الظروف الحياتية حيثما كانت بطريقة مفاجئة حقًا".

ينتقل بنا "هوسر" للحديث عن بعض مواصفات مدينة بيروت فيقول :"معظم البلدات والمدن لديها نوع من نقطة محورية، تنطلق منها جميع الطرق، وحيث يمكن للزائر أن يذهب في الاتجاه الذي يريده، وفي ساحة "الاتحاد"(٣) نجد مركز نشاط بيروت ، حيث



يوجد أربعة خطوط من عربات الترامواي مختلفة الألوان وتوفر وسائل نقل مقبولة إلى الضواحي، سواء الى المنارة في راس بيروت، او الى غابة "الصنوبر" (٤) في طريق دمشق".

ثم يلفت "هوسر" نظرنا الى موضوع مميز وكأنه ساءه أن يرى بيروت تتحول الى حاضرة غربية تتنكر لأصالتها الشرقية، ومؤكدا على تناقضات تعيشها المدينة كما كانت وما زالت الى يومنا هذا، فيقول:"أزعج الطابع التجاري الغربي في بيروت الحياة القديمة الخلابة والهدوء الحالم للشرق، وهنا نجد مزيجًا مثيرًا للفضول، من سيارات كهربائية وجِمال ومساجد وصالات سينما ومقاه وحدائق يشرب فيها البعض الخمور".



وفي جولته في بيروت، يلفت انتباه "هوسر" وجود العديد من المباني المهدمة بفعل معارك و اعتداءات قديمة، ولا يجد جوابا عن سؤاله عن سبب بقاء أجزاء من هذه الأبنية مهدمة، فيقول:"هناك العديد من البيوت المهدمة في بيروت، والعجيب أنها بقيت لزمن طويل في حالة الخراب هذه، وانك تجد صفوفا كاملةً من المنازل التي سقطت واجهاتها الحجرية منذ حوالي نصف قرن، وبعضها يذكرك بقصف عام ١٨٤٠، وترى أيضا الطوابق الأرضية و قد شغلتها دكاكين الأسواق، فيما الطوابق العليا في حالة خراب تام".

ثم يذكر "هوسر" لنا أمرا سبق لكثيرين من الرحالة و المسافرين ان أشاروا اليه ، و هو التسامح الذي يتحلى به أهل المدينة وسكانها رغم اختلاف طوائفهم واصولهم واحيانا السنتهم، فيقول :"...ومع ذلك ، تُعتبر بيروت مدينة متطورة بشكل كبير في كثير من النواحي، وهنا كل واحد مهما كانت طائفته يهتم بشؤونه

الخاصة، وحتى انك لا تشعر بالازعاج المستمر الذي قد يسببه بعض المرشدين أو الباعة المتجولين، ويمكن لأي أوروبي أو أميركي أن يمر في الشوارع ولا يلتفت اليه أحد".



ويتوقف "هوسر" امام ظاهرة الكلاب التائهة في شوارع بيروت فيقول :"يصادفك في بيروت عدد كبير من الكلاب الجائعة التي يسمونها "الزبالين" لأنهم جاهزون في أي وقت لأكل أي شيء يسقط من مائدة غني أو حتى يلعق بعض الفتات من فقير. هذه الكلاب لا مالكين لهم، يركضون طليقين، ويعيشون حياة محفوفة بالمخاطر في الأزقة والزواريب، ومع ذلك تراهم نحيفين وينامون بهدوء تحت الأكواخ والعربات، وهم ربما أكثر سعادة من الحيوانات الأليفة المقيدة بالسلاسل والتي تنعم بالدفء في بيوت المجتمع".



وينقل "هوسر" صورا من هذه المدينة العجيبة الشرقية التي لا تتورع عن استقدام كل ما هو حديث أو غربي ليكون على أرفف دكاكينها لترضي زبائنها المحليين والغرباء :"لا تشعر هنا بالبعد عن أميركا، فهنا تزدحم المتاجر في الشوارع الضيقة، وتسمع صوتًا ثاقبًا لفونوغراف، وتجذبنا لافتات الإعلانات المألوفة، فترى لافتة لصابون الغسيل الأميركي "فيلس نابثا" (٥) وترى عربة محمّلة بمنتج "حليب بوردن"

(٦)، و في الشارع الرئيسي تجد وكالة "ريمنجتون" (٧) للآلات الكاتبة ومتجر أحذية "ووك أوفر"(٨) وكل ذلك ينعش ذاكرتنا في الوطن".

ورغم بعده الاف الأميال عن بلده، فقد أثار حنينه صوت لحن موسيقي يعزفه هاو صغير ، فيقول:"جلست في إحدى الأمسيات أكتب مذكراتي لإرسالها عبر البريد في الصباح ، سمعت أسفل نافذتي لحنا صاخبا يعزفه هاو صغير، لا أدري أكان أميركيا أو انكليزيا، ولكن أعلم انه أثار هذا التأثير وكان له مستمع وحيد هو أنا".

لا أدري ما الذي أخذ "هوسر" الى سجن في بيروت ، ولكن تعالوا نتعرف معه الى ما يجري فيه :.. "السراي" هو الاسم الشرقي لمبنى البلدية ومقر الشرطة، وعندما زرنا سجن بيروت في ساحة الاتحاد، بدت لنا غرابته، فهو يحتوي على فناء رباعي الزوايا تفتح عليه عدة مداخل بأبواب من قضبان حديدية.

هنا يتحدث السجناء مع الأقارب أو الأصدقاء في جو عام من التواصل الاجتماعي، ويتم تمرير السجائر والأكل من بين الحواجز الشبكية.
يمتلئ الجانب المظلل من الفناء دائمًا بالزوار، في حين أن الجانب المشمس تراه مهجورا الا حين يُجبر السجناء على البقاء في هذا الجانب بانتظار مجيء أصدقائهم".

ونعود الى الشارع ، ويعرّفنا "هوسر" على بعض مظاهره ، فيقول: "ألعاب الحظ تبهج العاطلين عن العمل في بيروت، ولقد رأيت مجموعات من الشباب

يجلسون لساعات يلعبون طاولة الزهر أو يجلسون في مكان مرصوف حول صورة مرسومة بالطباشير ، يناورون بحبوب الفاصوليا السوداء والبيضاء.

وغني عن القول، أن لعبة رمي النرد الهادئة هي مصدر ناجح في اهتمام ماسحي الأحذية، فهؤلاء الأولاد موجودون في كل مكان ، معظمهم من الصغار الجذابين ، بعيونهم المتباعدة والمهدبة برموش ثقيلة ، ومستعدون دائمًا لأداء عملهم بابتسامة امتنان تقديراً لكرم زبائنهم. ليس لديهم اتحاد ولا مقياس للأسعار ، فهم يلمعون حذاءك مقابل قطعة "متليك"(٩) أو قطعة فضية بخمسة قروش.



البسة ماسحي الأحذية مُرقعة بكثرة بحيث لا يبقى شيء من شكل الملابس الأصلية، لكن هذه مسألة لا داعي للقلق حوله، لأنهم سيضيفون المزيد من الرقع، بحيث يُخيّل للمرء أنه سيتم توارثه من جيل الى آخر".

(١) ALBERT.H HUSSER
(٢) THE LANDS OF THE PROPHETS
(٣) أصبحت بعد الاستقلال ، ساحة رياض الصلح
(٤) حرج بيروت
(٥) FILS-NAPTHA وهو دواء غسيل لإزالة البقع، كما يستعمل لإزالة التهيج الجلدي.
(٦) BORDEN DAIRY علامة تجارية مشهورة للحليب في الولايات المتحدة.
(٧) REMINGTON
(٨) WALK OVER علامة تجارية لأحذية أميركية.
(٩) المتليك هو عملة عثمانية متدنية القيمة وصُنعت من النحاس.